سقوط اليسار

لو سئلت.. ما هى المشكلة المصرية التى لها الأولوية المطلقة الآن؟ لقلت دون تردد: هى الفساد.

السرقة، والغش، وخراب الذمم، والكسل، والسلبية، والأيدى الممدودة التى تريد أن تأخذ ولا تعطى، والأصوات التى تطالب بالحق دون أن تؤدى الواجب، والنهم، والجشع، وتعجل الربح، وضياع القيم، وعدم الانتماء.

المواعظ لم تعد تجدى، لأنها تخرج من أفواه لا تعمل بها. الكل يهدى ولا مهتد..

لو سُئلت: ما السبب؟! لقلت: سقوط الهيبة، وانعدام القدوة، وتراخى قبضة الحاكم.. إن الحاكم الذى يحاول أن يرضى الكل سوف يخضع لأهواء الكل ولن يصبح حاكمًا، بل محكومًا.

والحاكم الأمثل لا مفر له من أن يغضب البعض، ويصدم البعض، ويواجه البعض بما لا يرضى.

لقد وقفت مسز تاتشر أمام إضراب عمال الفحم ولم تهادن ولم

تلن، وطرحت القطاع العام للبيع برغم الاحتجاج والهتاف وأصوات الاستنكار، وأنقذت اقتصاد بلادها، وعالجت التضخم، وأعلنت أنها عائدة لتستأصل الاشتراكية من إنجلترا.. وحملتها أصوات الأغلبية إلى الكرسى من جديد تقديرًا لشجاعتها.

والإصلاح أحيانًا يحتاج إلى جراحة وإلى إسالة بعض الدم لإنقاذ المريض من موت محقق والطبيب لا يكون طبيبًا إذا افتقد هذا الحد الأدنى من الجرأة ليجرح ويضمد عند اللزوم.

وفى مصر تركة من الأخطاء القاتلة لابد من مواجهتها فى جرأة.

مجانية التعليم الجامعى التى حولت الجامعات إلى مجموعة كتاتيب لا تعليم فيها ولا تربية، ولا حتى مجانية (انظر الدروس الخصوصية) وأضعف الإيمان أن يحرم الطالب الراسب من هذه المجانية، وأن يدفع تكاليف تعليمه، وإلا كان حالنا حال من يمول الفشل والرسوب والإهمال من الخزينة العامة.

والخمسون فى المائة عمال وفلاحون فى مجلس الشعب نسبة لا مثيل لها فى الصين أو فى الهند أو فى روسيا ولا فى أى بلد رأسمالى أو اشتراكى، والتى لم تكن سوى رشوة قدمها عبد الناصر ليستدر بها التصفيق والهتاف.

وحق التعيين لخريج الجامعة فى الوظائف الحكومية، سواء

وُجِدَتْ هذه الوظائف أم لم تُوجَدْ، وسواء أكانت هناك مسوغات وضرورات للتعيين أم لم توجد.. وهى رشوة أخرى وبدل بطالة قدمه عبد الناصر من خزينة مفلسة ترزح تحت عبء الديون لكل عاطل متبطل ليقود له المظاهرات، ويوقع على الاستفتاءات.

غوغائية زعيم أراد أن يكتل الشارع خلفه ليضرب به أى طبقة تناوئه.

الدرس الأول الذى تعلمه فى سنة أولى شيوعية.. فى كيفية الحفاظ على الكرسى.. اضرب الطبقات بعضها ببعض وأشعل فتيل الحقد الطبقى.. ثم احتفظ بعربة الإطفاء الوحيدة.. يلجأ الكل إليك، ويُقَبِّل الكل قدميك.. ويستنجد بك الخصم والصديق.. لأنك تكون حينئذ مرفأ الأمان الوحيد فى بحر الفتن والأحقاد والتناقضات.

وهكذا فعل صاحبنا.. فقد وعى الدرس وطبقه بحذافيره.

وهكذا ترك البلد بحرًا من الفتن والأحقاد والتناقضات، وميراثًا من الخراب لكل مَنْ حَمَله مِنْ بعده.

ولم يجد السادات مفرًّا من أن يلقى بهذا الحمل على خليفته من بعده، دون أن يبت فيه أو يواجهه.

ولم يجد حسنى مبارك إلا أحد خيارين: أن يؤجل المشكلة ويلقى حملها على مَنْ يخلفه، أو يواجهها برمتها، وكلا الخيارين صعب.

ولكن هل كانت الزعامة دائما إلا الخيار الصعب؟
وإنى أشفق على حسنى مبارك، فكل خيار منهما باهظ الثمن.

لو أنه أعطى نفسه تمامًا لمشكلة الاقتصاد والإنتاج واختار تأجيل المواجهة فإن التعليم بشكله الراهن لن يخرج له منتجين، ولا التوظيف الحالى سوف يدفع بالإنتاج الدفعة التى يرجوها.. بل الهيكل الوظيفى والهيكل التعليمى كلاهما يدفع بمصر إلى الوراء، وإلى مزيد من التخلف والبيروقراطية.. وأصوات الخمسين فى المائة من عمال وفلاحين هى أصوات معوقة، وهى فرملة القصور الذاتى الذى سوف يمنع أى تطور.. وأى زيادة فى الإنتاج سوف تذهب فى بالوعة الدعم والتضخم السكانى.. ثم لا يجد فى النهاية مخرجًا.. سوى أن يقترض ويقترض ويقترض.

ولو أنه اختار المواجهة فسوف يحتاج إلى الجيش والبوليس للضبط والربط وتحسب العواقب، وهو لا يريد الملاحة فى العواصف، ولا يحب المخاطرة، ويخشى على الديمقراطية الوليدة من القوة ومن أجهزة القوة.

لكن بدون المواجهة لا إصلاح، وإنما مجرد مسكنات ومراهم.. فى حين أن الصديد يضرب فى الجرح والمرض يشتمل الجسد كله.

ومجانية التعليم الجامعى تغرى العمالة الريفية بأن تهجر الأرض ليحقق كل فلاح حلمه فى أن يصبح مهندسًا أو طبيبًا أو محاميًا، وينقلب معمل التفريخ البشرى فى الريف إلى مضخة

تصب فى اتجاه واحد، من الريف إلى المدن، إلى حيث مزيد من التكدس والزحام واختناق المرافق، وتجف الأرض وتتصحر ولا تجد من يزرعها.

ثم يتراكم ألوف وملايين الخريجين الذين لا يجدون وظائف تستوعبهم إلى كَمٍّ هائلٍ من البطالة يخلق مشكلة من حيث تصور الحاكم أنه يؤجل المشكلة، وتدور الحلقة المفرغة لتضيق شيئًا فشيئًا على عنق النظام القائم حتى تسقطه.. ولهذا يخطط الرفاق اليساريون ويرسمون حيث يعتقدون واثقين أنهم الورثة الشرعيون للخراب والفقر والأزمات، فإن لم توجد أزمات فإنهم يخلقونها، وإن لم يكن هناك خراب فإنهم يصنعونه، فهو بيئتهم الطبيعية التى لا يعيشون إلا فيها.

ولهذا يتنادى اليساريون وتتجاوب مقالاتهم وتتعالى صرخاتهم إذا مس أحد هذا الثالوث المقدس.. مجانية التعليم، والخمسين فى المائة عمال وفلاحين، والوظيفة المقدسة لكل خريج.. لأنهم يعلمون أنها القنابل الموقوتة التى تركها عبد الناصر بعد موته لتفرخ التناقضات والأزمات والمشاكل حتى تأتى على البنيان المتهالك من قواعده.

ولقد كان عبد الناصر يعلم حينما زرع هذه الوعود فى التربة المصرية أن الوفاء بها سيكون مستحيلاً، كما أن الرجوع عنها سيكون مستحيلاً.. وأنها ستظل الشرخ القاتل الذى يقصم ظهر

كل من يأتى بعده.

ولكن مسز تاتشر باعت القطاع العام فى المزاد فى إنجلترا، ووقفت فى وجه عمال مناجم الفحم المطرودين، وأعلنت أنها عائدة لتستأصل الاشتراكية من بلادها وعادت تحملها إرادة الأغلبية إلى كرسيها من جديد.

وما ظن اليسار أنه مستحيل لم يعد مستحيلاً.. ولم يعد اليسار بالقوة التى كان عليها فى الخمسينيات والستينيات.

لقد تحول التيار السياسى فى العالم كله وسقط الفكر الماركسى حتى فى بلاده، وتراجع اليسار فى إنجلترا وفرنسا وإيطاليا وأسبانيا، وفقد أكثر مقاعده فى هذه الدول.. وفقد سمعته وفقد شرفه.. وفى مصر سقط رئيس حزب التجمع فى دائرته الانتخابية، ولم ينجح أحد من الحزب الناصرى ولا من حزب التجمع، ولم يبق عاملاً نشطًا فى ساحة اليسار إلا أمثال الألوية الحمراء وأخواتها من خلايا التخريب والإرهاب والخطف والسيارات الملغومة.

واليسار المصرى مجرد أعمدة فى الصحف وشعارات ولافتات وصيحات ولكن فى لحظة الامتحان لا يجد له رصيدًا شعبيًّا، ولا سندًا جماهيريًّا.

وهو مجرد بقية مما ترك عبد الناصر.

وقد جاء وقت المواجهة ولا مهرب.. مواجهة الفكر بالفكر،

ومواجهة الأكاذيب بالإحصاءات والأرقام الدقيقة، ومواجهة التزييف بالوقائع وبالتاريخ الثابت.

وقد عجبت لزميل مثل أحمد بهاء الدين يقول: إن عبد الناصر ليس مسئولا عن الإهمال والتسيب والفساد والتدمير الذى وصل بنا إلى ما نحن فيه.. وهو أول من يعلم أن الفساد ما وُلد إلا فى حكم عبد الناصر الذى غابت فيه الحرية، وقُطعت الألسن، وقصفت الأقلام، وسادت مبادئ النفاق والانتهازية، وحكمت مراكز القوى، وانطلقت عصابة القتل تعيث فى الأرض فسادًا.. وما وُلد الإرهاب الذى نعانى منه اليوم إلا فى زنازين التعذيب فى السجن الحربى بأمر وتوجيه وإشراف من عبد الناصر.

وعجبت له يتكلم عن قامة عبد الناصر الطويلة وحجمه التاريخى، وهو القائل إن عبد الناصر جعل مصر كبيرة والمصريين صغارًا.

وفى الحق أنه ما جعلها كبيرة، وإنما هو نفخ الأبواق وَقَرْعُ الطبول ودوى الأجهزة وهتاف المرتزقة الذى أفاق منه الكل فجأة على هزيمة منكرة، وأرض محتلة، ومصر صغيرة أصغر مما ورثها عبد الناصر بمقدار سيناء، وبمقدار حجم السودان كله.

ثم من قبيل التعريض بالموجود يقول: إن عبد الناصر ترك الخزينة مدينة بأقل من ألف مليون، واليوم هى مدينة بأربعين ألف مليون.. والظاهر أنه نسى أصول الجمع والطرح، ونسى جدول

الضرب أو تناسى أين أنفقت الأربعين ألف مليون.. وكيف أنفقت لإنشاء بنية أساسية تركها عبد الناصر منهارة مخربة.. أنفقت ليجد تليفونًا يتكلم فيه، ومواصلة يركبها، وماء يشربه، ومدنًا سكنية يجد فيها الشباب غرفة يأوى إليها، وكهرباء يقرأ عليها ومصادر طاقة، وأمنًا غذائيًا يغطى احتياجات عشرين مليونًا زادوا فى التعداد منذ رحيل رجله، وكل هذا بأسعار الثمانينات وبالدولار الحاضر.

ثم يمن علينا بالسد العالى الذى أقامه صاحبه، وأولى به أن يتلفت حوله ليجد أن نفق المترو وحده بأعماله الخرسانية مضافًا إليه عشرات الكبارى والأنفاق والمصانع والسنترالات ومحطات توليد الكهرباء والموانى الجديدة والمدن السكنية والوادى الجديد وتوسيع القنال وغزو الصحارى والتنقيب عن البترول.. الخ الخ.. هى أضعاف السد العالى من ناحية الحجم الإنشائى ومن ناحية الأثر.. ومع ذلك فقد تمت جميعها دون أن نرى حسنى مبارك يقتل أحدًا أو يسجن بريئًا أو يعذب مخالفًا له فى الرأى..

ونذكره بالإنجازات الحافلة التى أنجزها صاحبه وكيف انتهت كلها إلى الإحباط وفى حياته..

الإنجليز الذين أخرجهم من القنال دخل مكانهم اليهود.
والقناة التى أممها ردمها.
والوحدة التى أعلنها مع سوريا رفضتها سوريا.

والاشتراكية التى تصورها راية قومية تجمع العرب تحولت إلى معركة تفرقهم.

ومجانية التعليم انتهت إلى حال لا هو مجانية ولا هو تعليم.

والإصلاح الزراعى هبط بالزراعة حتى جاء اليوم الذى أصبح فيه القمح يأتينا تبرعًا من إخوة لنا فى السعودية خضروا الصحارى وزرعوها بدون اشتراكية وبدون شعارات.

وأخيرًا انتهى الرجل وانتهت سياسته إلى الهزيمة والخراب الاقتصادى، وجميع أفكاره أخذت حظها من الامتحان وسقطت.. وكان على السادات أن يبدأ من الصفر، وكان على حسنى مبارك أن يبدأ من مشاكل لا تنتهى.

فماذا يحاول الزميل إحياءه؟ وما هى التقدمية والعلمانية التى يكلمنا عنها كل يوم؟! إن مدلول الكلمة الحرفى والصريح هو نظام لا يؤمن إلا بهذا العالم، ولا يعمل إلا من أجله، ويرى فى حكاية الآخرة والله والحساب والعقاب أنها غيبيات ومسائل غير مطروحة لا تخص سوى أصحابها ولا تتخطى باب المسجد.. أما فى الشارع وفى المجتمع فلا حكم إلا للقانون الوضعى الذى ارتضاه البرلمان، فإذا وافق البرلمان بأغلبية على إباحة الزنى والشذوذ والخمر والقمار والربا فإنها تصبح مشروعة وتكتسب قوة القانون، وإن خالفت الأديان وصادمت الشرائع.. هذه هى علمانية أحمد بهاء الدين!!

والأمثلة الموجودة والحاضرة لهذه العلمانية فى البلاد الإسلامية والعربية هى لبنان واليمن الجنوبى وبنجلاديش ونظام أتاتورك، وجميعها أمثلة متفاوتة للأزمات الاقتصادية والديون والتخلف والتبعية وفقدان الهوية.

بل إن الكعبة التى يتجه إليها العلمانيون ويتلقون منها وحيهم وإلهامهم نرى فيها العمال الكادحين يقفون فى طوابير ليشتروا الكرنب بالبطاقة، فى حين أن أعضاء الحزب الشيوعى يأكلون الكافيار ويركبون عربات الزيم الفاخرة.. ونقرأ عن برجنيف أنه كان يمتلك جراجًا به أكثر من عشرين عربة فاخرة من أغلى وأفخر أنواع الرولز رويس والمرسيدس والليموزين.

ذلك ما يقوله دفتر أحوال هؤلاء العلمانيين برواياتهم وتوقيعهم، وبدون تشنيع، ومن أجل هذا سقط اليسار فى العالم كله، وتراجع جورباتشوف عن أفكار لينين وستالين وبرجنيف وضرب بها عرض الحائط.. كما تراجعت الصين وانتكست الأحزاب الشيوعية الأوربية على رءوسها.. ولم يبق من دراويش الماركسية إلا اليسار المصرى يرفع رايات عتيقة بالية انتهت موضتها.. ويحلم بأمجاد ولت.

ويقول لنا الزميل أحمد بهاء الدين: موتوا بغيظكم.. وما مات بغيظه إلا صاحبه، بل لقد مات بحسرته يغص بهزيمة منكرة وإحباط لم يشهده زعيم قبله.

والزملاء الرفاق الذين يلبسون قميص عبد الناصر ينسون أن القميص مهلهل أدركه البلى، وأنه دخل فى تركة ماضٍ انتهى وأصبح مخلفات.. وأن العصر بمشكلاته ومتغيراته تجاوز عبد الناصر وفكر عبد الناصر، وأن المشاكل التى استجدت تحتاج إلى فكر جديد.. وأن نقود أهل الكهف التى يدورون بها فى الأسواق لن تشترى لهم شيئًا..

افتحوا النوافذ يا رفاق.. واستنشقوا الهواء، فنحن على أبواب التسعينيات.

عمتم صباحًا.